

المنهج القرآني في تنمية البيئة

الدكتور/ يحيى محمودي

باحث في الطب البديل

بتحقيق مبدأ العبودية، والعبودية تعني الطاعة، والطاعة تعني الالتزام بأمر الله والبعد عما نهى عنه: يقول الله تعالى في القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس : 10]. كما طالب الإسلام بالصلة الراسخة بالله في السر والعلانية، ووظف أسلوب الترغيب والترهيب لضبط السلوك من أجل الوصول إلى الإيمان؛ لأن الإيمان يعني سلوكاً إنسانياً سوياً إيجابياً، ففي حين شجع الإسلام كل ما هو مفيد للبيئة الإنسانية والطبيعية، وضع عقوبات علي المسيء للبيئة بكل جوانبها، وبهذا ضبط دائم لسلوك الإنسان نحو الخير والعطاء والتضحية، والبعد عن الإثم والشر، وبالتالي يشكل هذا ركناً من أركان حماية البيئة في الإسلام.

المقصد الثاني: الاستخلاف، أي جعله خليفة في الأرض أي خلافة الله تعالى في خلقه وهذا الاستخلاف يتم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد،
إن للإسلام منظوراً شاملاً متكاملًا ومتميزاً لمفهوم البيئة وقضاياها المختلفة وطرق التعامل معها وحمايتها، وذلك من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة واجتهادات علماء المسلمين وفقهائهم. ويستمد هذا المنظور أسسه من مقاصد ثلاثة لله تعالى من المكلفين من بني الإنسان كما جاء عن الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه "الذريعة إلى مكارم الشريعة".

المقصد الأول: عبادة الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : 56]

لقد بدأ الإسلام بتعريف الإنسان بحقيقته، حتى لا يطغى ولا يسيء إلى نفسه ولا إلى من يحيط به، فطالبه الله

بإقامة الحق والعدل ونشر الخير والصالح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

المقصد الثالث: عمارة الأرض أي التعمير، وكلفه بعمارة الأرض له ولذريته من بعده، وعمارة الأرض إنما تتم بالغرس والزرع والبناء، والإصلاح والإحياء، والبعد عن كل إفساد وإخلال. قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. كلمة استعمركم السين والتاء تقال في اللغة العربية للطلب، يعني طلب إليكم أن تعمروا الأرض.

وهذه المقاصد كلها متداخلة ومتكاملة ومتلازمة، فعمارة الأرض تدخل في الخلافة، وكلتاها ضرب من العبادة لله تعالى، كما أن العبادة تدخل في الخلافة، فلا خلافة بلا عبادة. ولأجل ذلك وفر له ثلاث أسباب أساسية: التسخير، التوازن والجمال.

أولاً: التسخير

هذا الكون المحيط بنا بمائه وهوائه وبحاره وأنهاره ونباته وحيوانه وجماده وشمسه وقمره وليله ونهاره كل ذلك مسخر لمنفعة الإنسان تكريماً من الله له ونعمة عليه، فعليه أن ينتفع بما سخر الله له.

جاء في القرآن الكريم الإلحاح على مفهوم التسخير وأن هذا الكون مُسَخَّر للإنسان والتسخير هذا نعمة من الله على الإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجن: 13]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33]، كلمة لكم كررت خمس مرات، كل هذه الأشياء السماوات والأرض والماء والشمس والقمر والليل والنهار، ﴿وَأَنَّا كُم مِّن كُلِّ مَّا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، هذا التسخير نعمة من الله للإنسان وكل نعمة ينبغي أن تُقابل بشكر لأننا لكي نحافظ على النعم ولكي يزيد الله النعم علينا، يجب أن نشكر النعم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]،

فَشَكَرَ النِّعْمَةَ أَنْ تُسْتَعْمَدَ فِيهَا خَلْقُهَا
اللَّهِ لَهُ، فِيمَا يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى وَبِرِضَاهُ،
فِي نَفْعِ الْخَلْقِ لَا فِي إِيْذَاءِ الْخَلْقِ، وَتَلْوِثِ
الْمِيَاهِ، وَالْهَوَاءِ.

ثانياً: التوازن

في الأيام الأخيرة كَثُرَ الاهتمام بشؤون
البيئة، وأدرك العلماء أهمية التوازن البيئي
وأثره على حياة الكائنات من نبات
وحيوان وإنسان، وبشكل خاص بعد
الكميات الضخمة من الملوثات والتي
أفرزتها حضارة القرن العشرين.

فقبل عدة عقود لم يكن هنالك
تلوث يُذكر، ولكن في السنوات الماضية
زاد عدد المصانع في العالم وزاد عدد
وسائل النقل وهذه تنتج كميات ضخمة
من المواد الملوثة والتي تسبب أمراضاً
خطيرة أهمها السرطان.

هذا التلوث أثر بشكل كبير على
الكائنات المائية كالأسماك، وكذلك
على الحيوانات وكذلك على النباتات.
ولكن من فضل الله تعالى ورحمته
بخلقه أنه أودع في هذه النباتات وسائل
لتنقية الهواء من المواد السامة.

فكما نعلم تستهلك النباتات لصنع
غذائها وثمارها غاز الكربون من الهواء،
وتجري في داخلها عملية تسمى بالتركيب
الضوئي تتركب من خلالها المادة الخضراء

والتي يُرَكَّبُ منها النبات الحبّ والثمار.
بنتيجة هذه العملية يطلق النبات
الأكسجين الذي يستفيد منه الإنسان
في عملية التنفس. والعجيب أن كمية
النباتات على وجه الأرض مناسبة لحجم
الغلاف الجوي.

هناك توازن دقيق بين ما يأخذه
الإنسان وبين ما يطلقه النبات من
الأكسجين. وتوازن آخر بين ما يطلقه
الإنسان من غاز الكربون وبين ما يأخذه
النبات من هذا الغاز. وسبحان الله!
هذا التوازن الدقيق تحدث عنه القرآن في
عصر لم يكن هنالك أي علم عن توازن
البيئة. يقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: 19].

وانظر معي إلى دقة ألفاظ القرآن
وتعابيره العلمية، وهذا يدل على أن
هنالك ميزاناً لنسب النباتات على
الأرض، ونسبة ما تمتصه من الكربون
ونسبة ما تطلقه من الأكسجين. وهذه
النسب قاسها العلماء حديثاً بكل دقة.
وعلى سبيل المثال فإن نسبة الأكسجين
في الغلاف الجوي هي (21) بالمئة
تقريباً. ولو زادت هذه النسبة لاحتقرت
الأرض مع أول شرارة، ولو نقصت هذه
النسبة قليلاً ماتت الكائنات إختناقاً!

أما نسبة غاز الكربون في الغلاف الجوي فهي أقل من (1) بالمئة. ولوزادت هذه النسبة لتسمم البشر وماتوا جميعاً، ولو نقصت لماتت النباتات وتوقفت الحياة. لذلك هنالك توازن دقيق في هذه النباتات وهذا ما تحدث عنه القرآن: ولكن عندما ندخل إلى كل خلية من خلايا أي نبات أخضر على وجه الأرض، نشاهد تركيباً مستمراً للمادة الخضراء. ومن هذه المادة تخرج الحبوب والثمار وهنا نجد للقرآن العظيم حديثاً أيضاً عن هذه العمليات الدقيقة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99]. فقد أكد القرآن أن تشكل المادة الخضراء يتم أولاً ثم يتم إخراج الثمار والحبوب منها. وهذا ما أثبتته الأبحاث الحديثة.

إن مفهوم التوازن يعني بقاء عناصر البيئة الطبيعية على حالها، كما خلقها الله سبحانه وتعالى دون إحداث أي تغيير جوهري فيها فإذا حدث أي نقص في أي عنصر من عناصر البيئة اضطرب

هذا التوازن فلا تصبح البيئة قادرة على تلبية متطلبات الحياة للإنسان.

كل شيء فيه موضوع بحساب وما أجمل القرآن الكريم حينما يلخص حكمة الاتزان في البيئة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، وقوله جل وعلا: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8]، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: 19]، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: 18]، القرآن يحدثنا عن هذا التوازن الكوني ويقول: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 9] أي حافظوا على التوازن في كل شيء، لا طغيان في الميزان ولا إفسار في الميزان، لا نطغى إلى حد الإسراف والتجاوز ولا ننزل إلى حد التفريط والتقصير.

قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]. إن الكون كله يسير وفق حسابان نظام محسوب بدقة: الشمس والكواكب

إن كل ما خلقه الله في البيئة قد خلقه بمقادير محدودة وصفات معينة، بحيث تكفل لها هذه المقادير وتلك الصفات القدرة على توفير سبل الحياة الملائمة لكل الكائنات الحية.

ثالثاً: الجمال

التوازن من الجمال الذي وضعه الله في هذا الكون، ربنا خلق هذا الكون بحيث يكون كَوْنًا جميلاً، قال الله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88] كل شيء متقن وأخذ حقه من الإتقان والإحكام: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: 7]،

أول مظهر جمالي ينبغي للإنسان أن يلتفت إليه ويقدره ويحفظه، هو جمال الخلقة البشرية ذاتها.

وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الإنفطار: 8].

ولا يخفى القصد إلى التنبيه على الجانب الجمالي والتحسيني في خلق الإنسان: ﴿فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾.

وفي السورة الأخرى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]. لأن قدرة الله التي تقصد كثير

من الآيات إظهارها، كان يمكن إظهارها بإظهار الخلق نفسه، وكثير من الدقة والإعجاز والكمال فيه، ولكن الله عز وجل يتحدث عن جانب آخر لهذا الخلق وهو الإحسان والحسن والجمال ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

وفي الدعاء كان النبي ﷺ يقول: (اللهم كما حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي...) فالرسول يلفت نظرنا، وهذا هو الأهم، إلى أن الإنسان حين ينظر إلى المرأة ينبغي ألا تغيب عنه مظاهر الإحسان والتحسين (كما حَسَّنْتَ خَلْقِي) وأن يطلب تحسيناً آخر وجمالاً آخر هو جمال الخلق.

ثم ينتقل القرآن بعد الإنسان إلى مظاهر الكون التي يلفت الله نظرنا فيه إلى الجانب الجمالي.

يقول الله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: 6]. إذن هناك بناء محكم متقن وهناك شيء آخر مقصود وضعه الله عن قصد ويذكره عن قصد ويلفت أنظارنا إليه عن قصد فيقول: ﴿بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ وهذا مظهر آخر من مظاهر جمالها أنه ليس فيها فروج، ليس فيها ثغرات وليس فيها فتحات وشقوق. قال

تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: 7] (الشيء البهيج، أي: الشيء الجميل الذي إذا رُئي أدخل البهجة على الناظر والمتأمل).

وفي سورة النمل نقرأ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: 60]. ذات بهجة ذات حُسن وجمال، إذن ليست فقط حدائق ذات ثمار، ولكن أيضا نعمة أخرى يلفت القرآن الكريم النظر إليها، وهو أنها ذات بهجة إذن مجرد المرور بجانبها والنظر إليها، شيء له قيمة، يجب الالتفات إليها ويجب ألا نغفلها وألا ننظر إلى هذه الحدائق فقط على أنها مصدر رزق ومصدر طعام، ولكنها أيضا مصدر بهجة.

وفي سورة الحج: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [5]. مرة أخرى الحديث عن البهجة التي مصدرها الجمال في هذه الطبيعة وفي هذه الأشجار والثمار.

وفي سورة النحل أيضا آيات عديدة، فسورة النحل أفاضت في لفت الأنظار إلى مخلوقات الله وإلى جانب الجمال

فيها، ضمن ما تلفت النظر إليه يقول الله عز وجل: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 6] إذن لم يقتصر على منافع الأكل والدفع والركوب، انظر إلى جمال القطيع وهو ذاهب إلى المرعى وراجع من المرعى، حتى يقول: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8]، وحتى في الخيل والبغال والحمير هناك زينة، فهنا جمال ينبغي أن نلتفت إليه وأن نتذوقه وأن نقدره، ليس فقط أن نلتفت إلى جانب الركوب وحمل الأثقال.

وحينما يذكر لنا البحر يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: 14]، أيضا تستخرجون من البحر حلية وهي تزيّن وزينة وجمال، إذن البحر أيضا كَشَأْنُ كافة مخلوقات الله فيه الجانب الجمالي وفيه جانب التزيّن والتجميل يلفت الله النظر إليه، وليس فقط إلى ما نستخرجه منه من لحوم. الحلية للزينة لأن القرآن يريد أن يُركز على جانب الزينة والجمال بجانب الفائدة والنفع كلاهما مطلوب، نحن للأسف نريد أن نُقبّح ما حسّنه

الله، الأشياء الجميلة نريد أن نُشَوِّهها بتصرفاتنا السيئة، فلاشجار الخضراء والأشياء الجميلة نريد أن ندمرها ونفسدها.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66]. يمكن أن نقول دون أن نتدبر بعيداً إن اللبن نسترزق به ونطعم به أنفسنا وأجسامنا وبطوننا ولكن الله تعالى أضاف قيمة أخرى جمالية وهي أنه لبن سائغ، يعني هنا لذة الطعام لأنه كان يمكن أن يخلق الله تعالى أطعمة تقيم أجسامنا وتبقي حياتنا دون أن تكون فيها لذة، فاللذة هي الجانب الجمالي في الطعام، ولهذا نبه الله على ذلك فقال: ﴿لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ فالقيمة الغذائية ليست في لذته، إذ يمكن أن يكون للشيء القيمة الغذائية التي نعيش بها دون أن يكون لذيذاً ودون أن يكون سائغاً، ولكن الله يلفت انتباهنا إلى هذه النعمة التي لا يلتفت الناس إليها، فالناس عادة قد لا يلتفتون إلا إلى إشباع البطون وإقامة الحياة وحفظها، ولا يلتفتون إلى ما في الأطعمة من مذاق ولذة.

وللسمع نصيبه من الجمال الذي

ينبغي أن يحفظ وأن البيئة المسموعة أيضاً ينبغي صيانتها وتحسينها.

وفي التنفير من الأصوات القبيحة نجد قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19].

ولا يخفى أن من مظاهر تلوث البيئة تلوث المجال السمعي بالضجيج والأزيز وضياح نعمة الهدوء ورقة الأصوات.

علاقة المسلم بالبيئة

ماذا تعني كلمة البيئة ؟

كلمة البيئة مشتقة من الفعل الثلاثي - بؤأ - ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74] ويقال تبوأت منزلاً أي نزلته، وبوأت الرجل منزلاً بمعنى هيأته ومكنت له فيه.

وعلى الرغم من أن كلمة بيئة لم يرد ذكرها في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة، إلا أننا إذا أخذنا مفهوم البيئة الذي يحددها بأنها الأرض وما تضمه من مكونات غير حية ممثلة في مظاهر سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان وصخور ومعادن وتربة

كلمة إغريقية معناها "دراسة الوطن" أو العناية بالبيت (oikos)، و logos وتعني علم، كما تعرف البيئة (Environnement) بصفة عامة بأنها: مجموعة الظروف الخارجية والتأثيرات المتعلقة بحياة الكائنات الحية ونموها، ومن هذا التعريف الأساسي للبيئة يمكننا أن نعرف بيئة الإنسان بأنها: مجموعة الظروف الخارجية والتأثيرات المتصلة بحياة الإنسان ونموه.

ومن دلائل القرآن الكريم على الاهتمام بالبيئة: أن نجد عددا من سوره يسمى بأسماء للحيوانات والحشرات وبعض النباتات والمعادن، وبعض الظواهر الطبيعية. فنجد من أسماء السور: سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة الفيل، وسورة العاديات وهي الخيل، وكلها من الحيوانات. ونجد سورة النحل، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، وكلها من الحشرات. وهذا ما جعل المشركين أو اليهود يعجبون من ذلك ويقولون: أي قدر للذباب وللعنكبوت، حتى يضرب الله بهما الأمثال؟! ورد القرآن عليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ

وموارد ومياه، ومكونات حية مثلة في النباتات والحيوانات بربة النشأة سواء كانت على اليابسة أو في الماء، وما يحيط بالأرض من غلاف غازي يضم الكثير من العناصر الأساسية اللازمة لوجود الحياة على سطح الأرض، نجد أن البيئة بهذا المفهوم - الأرض ومن عليها وما حولها - قد ورد ذكرها في القرآن الكريم في 199 آية في سور مختلفة، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم : 32].

استخدم علماء المسلمين كلمة البيئة استخداما اصطلاحياً منذ القرن الثالث الهجري، ويقصد بالبيئة كل ما يثير سلوك الفرد أو الجماعة ويؤثر فيه، ويشار إلى العوامل البيئية بأنها كل الظروف والعوامل التي تؤثر في الكائن الحيوي من خارجه، أما البيئة في المعاجم الغربية فهي تعني مجموعة الظروف الخارجية والعوامل القادرة على التأثير في حياة الكائنات بما في ذلك الإنسان.

ويعتبر «إيرنست هايكل» (Ernest Haeckel) أول من أوجد كلمة علم البيئة écologie في عام 1866م وهي

فَمَا فَوْقَهَا [البقرة : 26] وأراد بما فوقها: أي في الضعف والهوان. ولهذا فسرهم بعضهم بقوله: أي ما دونها. ونجد في القرآن سورة التين، وهو من النباتات، وسورة الحديد، وهو من المعادن. ونجد سورة الرعد، وهو من الظواهر الطبيعية، وسورة الذاريات، وهي الرياح التي تذر الأشياء. وسورة النجم، وقد أقسم الله به إذا هوى، وسورة الفجر، وسورة الشمس، وسورة الليل، وسورة الضحى، وسورة العصر، وكلها ظواهر طبيعية. ونجد سورة الطور، وهو يعني الجبل مطلقاً أو جبلاً معيناً، وسورة البلد، والمراد به مكة البلد الحرام، وسورة الأحقاف، وهي في الجزيرة العربية، وكلها أماكن. فهذه التسميات للصور القرآنية لها دلالاتها وإيحائها في نفس الإنسان المسلم، وربطه بالبيئة من حوله، بحيث لا يكون في عزلة أو غفلة عنها.

يتمتع الإسلام بنظرة أعمق وأوسع للبيئة، فقد طالب الإنسان أن يتعامل مع البيئة من منطلق أنها ملكية عامة يجب المحافظة عليها حتى يستمر الوجود، ويتمثل ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى: **﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ**

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : 85].

ولم تقتصر نظرة الإسلام للبيئة على البعد المكاني لها، بل شملت أيضاً البعد الزمني، قال تعالى: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾** [العنكبوت : 20].

وعلاقة المسلم بالكون من حوله علاقة متميزة. فالكون "أو البيئة" ليس عدواً للإنسان يريد أن يقهره، بل هو مخلوق مسخر لخدمة الإنسان ومنفعته. فهو - أي الكون أو البيئة - يشترك مع الإنسان في كونه مخلوقاً لله تعالى، ويشترك مع المسلم في سجوده وتسبيحه لله جل شأنه.

بل إن الإسلام نظر إلى الأمور البيئية نظر ود وحب، ونص القرآن الكريم أن الشجر والدواب والجبال والنجوم تسجد لله تعالى مثل الإنسان المؤمن وأنها تسبح ربها.

ويرى علماء الأخلاق المسلمون الكون (البيئة) على أنه آية من آيات الله تستوجب من الإنسان التفكير فيها، وأنه نعمة تستوجب الشكر والمحافظة عليه والاستمتاع بعنصر الجمال فيه وتنمية هذا الجمال؛ لأن كل شيء في البيئة من الضروري أن يظهر فيه بديع صنع الخالق سبحانه.

الركائز الإسلامية لرعاية البيئة

توجد ركائز أساسية لرعاية البيئة منها:

التشجير والتخصير: فهناك آيات وأحاديث كثيرة تحض على الغرس والزرع، يقول النبي ﷺ: «مَنْ نَصَبَ شَجَرَةً فَصَبَرَ عَلَى حِفْظِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا حَتَّى تَتَمَرَّ كَانَ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُصَابُ مِنْ ثَمَرَتِهَا صَدَقَةٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». (رواه أحمد).

الشجرة في القرآن آية ونعمة وبركة، وبها شبه الله نوره العظيم بقوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: 35]،

ففي مجال مكافحة التصحر تحديداً، فإن للإسلام موقفاً، مشهوداً، فالقرآن الكريم يلفت نظر الإنسان إلى الأرض، المخضرة على أنها نعمة من الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63] ﴿أَنَا صَبِّئْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: 25] ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: 26] ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: 27] ﴿وَعَنْبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: 28] ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس: 29] ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: 30]

30 ﴿وَفَاكِهِتً وَأَبًّا﴾ [عبس: 31] ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: 32/25] كما أن القرآن حين يصور فظاظة الإنسان ووحشيته يصفه أحيانا بأنه ممن يتلفون النبات والحيوان: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 205].

هذا، إضافة إلى الكثير من الآيات التي تذكر بأنعام الله تعالى في رزق الإنسان الجنائن والسواقي، ويكفي أن تكون الجنة، وهي، حديقة عظيمة، ثواباً للطاعة في الآخرة.

وقد كان النبي ﷺ أول من أنشأ محميات بيئية لا يجوز قطع شجرها ولا قتل حيوانها. فقد "حمى رسول الله ﷺ كل ناحية من المدينة بريداً بريداً: وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ فِي الْحَدِيث: «حَرَامٌ لَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا وَلَا يُخْتَلَى شَوْكُهَا وَلَا يُلْتَقَطُ سَاقُهَا إِلَّا لِمُنْشَدٍ». فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْخَرَ فَإِنَّا نَجْعَلُهُ فِي مَسَاكِنَا وَقُبُورِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِلَّا الْإِذْخَرَ إِلَّا الْإِذْخَرَ». (رواه أبو داود)، وكان "ينهي أن يقطع من شجر المدينة شيء" [رواه أبو داود]، بل يجبر على سقي النخل إن

كان في ترك سقيه هلاك النخل وكذلك في الزرع برهان ذلك قول الله عز وجل ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 205].

وعندما وصل النبي الكريم إلى المدينة المنورة أطلق حملة كبيرة للتشجير والغراس وشكل ما يمكن تسميته أول وزارة زراعة في الدولة الإسلامية يوم كلف طلحة بن عبيد الله أن يحفر الآبار بالمدينة وبالفعل فقد حفر فيها أربعة وخمسين بئراً، وبوسعك أن تتصور إلى أي مدى أطلق ذلك النشاط الزراعي الأمر الذي حول المدينة المنورة إلى رقعة خضراء في حياة النبي الكريم، وفي الواقع فإن قليلاً من الباحثين من يشير إلى إصلاحات النبي الكريم على صعيد التشجير ورعاية الزراعة والحفاظ على الشجرة.

إن تعاليم الإسلام تحث على الاهتمام بالأرض وزراعتها والاستفادة من عطائها لتلبي احتياجات الإنسان والحيوان من الغذاء قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ » . ، وقال ﷺ: « إِنَّ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ

فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا » . والغريسة: النخلة أول ما تنبت، أو الفسيلة ساحة توضع حتى تعلق.

أيضاً يمكن التماس هذا السلوك التربوي في إشراقه وهديه من خلال حديث النبي ﷺ: ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوس، إذ أتني بجُمَارِ نخلة، فقال النبي ﷺ: (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مِثْلُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا... الحديث).

وبإمكانك أن تقرأ ما بين السطور هذا اللون التربوي الفريد الذي يقدمه الرسول ﷺ حين يجعل العلاقة بين المسلم وبين البيئة علاقة حميمة ودودة حين شبه النخلة بالمسلم.

العمارة والتشجير: ويأتي في مقدمتها إحياء الأرض الموات وتثمين الثروات وتنمية الموارد، ولذا اعتبر الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه "الذريعة إلى مكارم الشريعة" أن عمارة الأرض أحد مقاصد خلق الإنسان، ولذا كان الحديث النبوي "من أحيا أرضاً ميتة فهي له" (رواه أبو داود)، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتزع أرضاً كانت مقطوعة إلى رجل يسمى "بلال بن الحارث المزني" لأنه لم يستطع أن

يعمرها كلها.

النظافة والتطهير: من الوسائل التي حرص عليها الإسلام في حفظ البيئة العناية بالنظافة والحقيقة أن موقف الإسلام من النظافة موقف لا نظير له في أي دين من الأديان فالنظافة فيه عبادة وقربة بل فريضة من فرائضه، إن كتب الشريعة في الإسلام تبدأ أول ما تبدأ بباب عنوانه الطهارة، أي النظافة فهذا أول ما يدرسه المسلم والمسلمة من فقه الإسلام.

وما ذلك إلا أن الطهارة هي مفتاح العبادة اليومية الصلاة كما أن الصلاة مفتاح الجنة فلا تصح صلاة المسلم ما لم يتطهر من الحدث الأصغر بالوضوء ومن الحدث الأكبر بالغسل والوضوء يتكرر في اليوم عدة مرات تغسل فيه الأعضاء التي تتعرض للاتساخ والعرق والأتربة مثل الوجه ومنه الفم والأنف واليدين والرجلان والرأس والأذنان قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا﴾ [المائدة: 6].

ومن شرط صحة الصلاة كذلك، نظافة الثوب والبدن والمكان من الأخباث

والقاذورات، قال تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4]. ويتسامى الفكر الإسلامي والفهم الحضاري فيه عندما يقرر أن الله خالق الوجود يحب الحياة الطبيعية والطاهرة التي لا تلوث فيها ولا قذارة، فيعبر الرسول الهادي ﷺ عن هذا المنهج بقوله: **إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَّمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ فَنَظَّفُوا أَفْنَيْتَكُمْ.**

الحفاظ على صحة الإنسان: وهناك حشد كبير من النصوص الإسلامية من قرآن وسنة يدعو إلى الحفاظ على الصحة بدءاً من الدعاء بطلب العافية ومزورها بالوسائل التي تجلب العافية وتحافظ على سلامة البدن وحتى التعامل الإيجابي مع المرض في حالة وقوعه والمحافظة على البيئة حتى لا تنتقل عدوى المرض إلى الآخرين.

إذا كان مطلوباً منا أن نحافظ على موارد البيئة وثرواتها الحيوانية والزراعية والمائية، فأولى من ذلك كله، المحافظة على الثروة البشرية، أي على الإنسان، خليفة الله في الأرض، إذ لا ريب أن من أنفس الموارد، وأثمن الثروات وأغلاها قيمة: صحة الإنسان، فهو الغاية من المحافظة على الموارد والمستفيد منها، وقد سخرها الله جميعاً له، وهو كذلك

الوسيلة لذلك في المحافظة عليها.

المحافظة على الموارد: يقول تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56].

والإفساد يكون بالإتلاف وتفويت المنافع أو التلويث والإسراف، أو بإشاعة الظلم والباطل والشر، ولذا نهى النبي ﷺ رجلاً أن يذبح له شاة حلوبة. وفي السنة إنذار لمن يقتل طيراً أو حيواناً بغير منفعة أو يتخذ شيئاً فيه روح هدفاً للتصويب عليه.

وقال تعالى لبني إسرائيل بعد أن فجر لهم في التيه اثنتي عشرة عيناً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 60]. وقال صالح لقومه: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74]. وقال شعيب لقومه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 85].

والإفساد في الأرض قد يكون مادياً بتخريب عامرها وتلويث طاهرها وإهلاك أحيائها وإتلاف طبيعتها أو تفويت منفعتها. وقد يكون معنوياً بإشاعة الظلم ونشر الباطل وتقوية الشر وتلويث الضمائر وتضليل العقول، وكلاهما شر يبغضه الله تعالى ولا يحب أهله، لهذا

تكرر في القرآن الكريم أن الله ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ المائدة 64، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ﴾ البقرة: 205.

- للحفاظ على الموارد الطبيعية: يجب مراعاة النقاط التالية:

1 - أن على الإنسان أن يستفيد من نعم الله بالقدر الذي يكفيه ولا يبذر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27]. وأن عليه أن يسعى إلى إعمار الأرض ومنع الفساد عنها الذي يأتي على الأخضر واليابس وهلك الحرث والنسل. قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ﴾ [البقرة: 205].

2 - إن التدبر في ما خلق الله من أنواع مختلفة من النباتات والحيوانات والعلاقة بين أجناسها والدعوة للتعامل معها بتعقل والاستفادة منها في حدود الحاجة والحفاظ عليها والرفق بها وعدم الإضرار بها، يعتبر من المرتكزات الأساسية للمنظور الإسلامي في المحافظة على الحياة الطبيعية.

البعد النفسي والبيئي للحيوان في الإسلام).

3 - أن التنوع البيولوجي وهو ذلك الكم الهائل من الأنواع المختلفة بأشكالها وألوانها التي خلقها الله سبحانه وتعالى، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28]

قد أصابه ما أصابه من خلل تسبب في انقراض بعض الأنواع نتيجة للممارسات الخاطئة للإنسان بحجة التنمية كإزالة الغابات وتلويث الهواء والتربة ومياه البحار والأنهار وزيادة معدلات ثاني أكسيد الكربون والمواد الكيميائية في طبقات الجو والتي تسببت في ظاهرة الاحترار والتغيرات المناخية وتخلخل طبقة الأوزون.

4 - أن الإسلام حث على الإسهام في الحفاظ على الحيوانات المختلفة والعمل على تنميتها وأكد على التنوع الحيواني باعتبار أنها أم مثل الإنسان. قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا

وكيف أن الله سبحانه وتعالى خلق النباتات بأنواعها المختلفة، قال تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4] وخلق الحيوانات وجعل منها ما يفيد للإنسان، قال تعالى : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5] وقال سبحانه : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: 80]، ومنها ما هو زينة كما ذكرت سابقا.

وأمر بالإحسان إليها ونهي عن قتلها أو حبسها عبثاً، قال رسول الله ﷺ : "دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض". وقد كثر النبي ﷺ يُميل للقطعة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها، وكان بعض الخلفاء مثل عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عماله ألا يُحمّلوا الإبل فوق ما لا تطيق وألا يضربوها بالحديد. (لاحظ هنا مراعاة

والحيلولة دون انقراضه وهو ما يسمى اليوم الحفاظ على توازن الطبيعة.

5 - أن المحافظة على المياه وتنمية موارده وعدم الإسراف في استعمالها من الأسس التي حث عليها الإسلام، مر رسول الله ﷺ على سعد وهو يتوضأ فقال: " لا تسرف، قال أو في الوضوء إسراف؟ قال نعم ولو كنت على نهر جار". قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

جعل الله الماء أصل حياة كل شيء حي على سطح الأرض فالنبات والحيوان والإنسان يرتبط وجودهم بوجود الماء ومن دون الماء لا يمكن لخلايا الجسم أن تحصل على الغذاء.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48].

يبين الله تعالى للإنسان أهمية هذا المورد الأساسي للحياة وتقديره حق قدره فالماء الطهور هو الماء العذب الطيب الخالي من كل ما يغير شكله ورائحته وطعمه.

جاء في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، فلولا الماء لما كان هناك أحياء، فالماء يدخل في تركيب الخلايا الحية، وتصل نسبته أحيانا إلى ما فوق الـ 90 % من تركيب

وقد تغلغلت هذه المعاني في أفهام المسلمين أيما تغلغل. واستمع إلى الإمام أبي محمد ابن حزم يقول في المحلى: «والإحسان إلى الحيوان بر وتقوى فمن لم يُعن على إصلاحه فقد أعان على الإثم والعدوان وعصى الله تعالى».

وفي قراءتنا لأخبار الأنبياء فإن نبي الله نوح الذي تحدث عنه القرآن الكريم كجد للأنبياء والأب الثاني للبشرية فإننا نتحدث عنه عادة في ضياء رسالته العظيمة من الدعوة إلى التوحيد والإيمان ولكن في غمار ذلك ننسى عادة واحدة من أهم رسالاته التي أوثمن عليها مع أن القرآن الكريم شرح ذلك مرارا حين عهد الله إليه بأن يقوم برعاية الكائنات الحية والحفاظ على تناسلها وامتدادها والحيلولة دون انقراضها فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: 27].

وبإمكانك أن تتصور نبي الله نوحاً وهو يهتم بإحصاء الكائنات الحية من الحيوان بأنواعه المختلفة من فقاريات وزواحف وهلاميات وهو يوفر لها في سفينته ظروف البقاء المطلوبة ويدرك تماماً رسالته في حفظ النوع الحيواني

الأجسام، ثم إن الماء هو المكان الطبيعي لحياة أصناف حيوانية، بدءاً من وحيدات الخلية وصولاً إلى الأحياء الكبرى من نبات، وحيوان، كما أنه يدخل في غذاء الأحياء بنسبة كبيرة أيضاً.

مياه البحار، المكان الطبيعي لعيش معظم الكائنات الحية، والمياه العذبة، التي تمثل مصدر الغذاء الرئيسي لسائر الكائنات في البرية.

تغطي البحار حوالي 71 % من مساحة الكرة الأرضية، وتحتوي، العدد الأكبر من الكائنات الحية نباتية وحيوانية، إضافة إلى الأحجار الكريمة.

المياه شغلت حيزاً واسعاً في القرآن الكريم، الذي يشير إلى صلبها من السماء والذي يؤدي إلى نمو النبات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63] ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65] ﴿أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَنْبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدائقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: 32]، هذه المياه كانت تؤخذ للشرب من ينباعها مباشرة، أو تجر على وجه الأرض

في أفتية مكشوفة، ولم يكن التلوث يؤثر فيها في السابق، لأن النفايات القليلة التي يمكن أن تصل إليها كانت تتلاشى بواسطة الترسيب أو الإلقاء في البحر، أو بفعل التنقية، التي يوفرها النبات النامي فيها وحولها.

6 - البعد عن تلوث البيئة: تواجه البشرية في هذه الأيام محنة عسيرة، عليها أن تجد سبيلاً للخلاص منها. وهذه المشكلة التي تهدد الجنس البشري، تهدد حياة الكائنات الحية والنباتات، إنها مشكلة تلوث البيئة.. والتي برزت على مسرح الأحداث، وظهرت نتيجة للتقدم التكنولوجي والصناعي والحضاري للإنسان.

وتتفاقم المشكلة مع محاولات الإنسان المستمرة، وجهده الدءوب في البحث عن وسائل جديدة للراحة والرفاهية والمدنية، وهو من أجل ذلك يلجأ إلى الاتساع في التصنيع، ويتجه إلى مكننة الزراعة، واستخدام الأسمدة والمبيدات الكيميائية، وهذا بدوره يؤدي إلى مزيد من المخلفات والمواد غير المرغوب فيها، والتي يتم التخلص منها إما بدفنها في الأرض، أو إغراقها في البحر، أو بنفثها في الجو.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿الرُّومُ: 41﴾.

هذه الآية تشير بجلاء إلى التلوث الذي يفسد البر والبحر نتيجة لعمل الإنسان من تدخل في الكون، وتشير أيضا إلى الضرر البالغ الذي يحل به من جراء عمله، ذاك الضرر الذي يذوقه الإنسان رغما عنه، والذي دفعه إلى ذلك هو جهله بنواميس الكون. إنه بتدخله غير المدروس في تغيير نظام البيئة، يدفع نفسه إلى التهلكة، والقرآن الكريم ينهى عن ذلك.

هذا وقد حفل القرآن الكريم بآيات كثيرة تتحدث عن الفساد الذي يحدثه الإنسان في الأرض، من معصية وكفر، أو من جور وظلم، وانتهاك الإنسان لحقوق أخيه، أو التلوث الذي يحدثه الإنسان بالأرض.

يقول جل وعلا : ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿المائدة: 64﴾.

ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿النحل: 88﴾.

أصبحت قضية البيئة بمشكلاتها المتعددة بدءا من تلوثها، واستنزاف

مواردها، وصولاً إلى الإخلال بتوازنها، حديث العالم كله، حتى قال بعض الباحثين: لو كان للبيئة لسان ينطق، لصكت أسماعنا صرخات الغابات الاستوائية التي تحرق عمدا في الأمازون، وأنين المياه التي تخنقها بقع الزيت في الخليجان والبحار، وحشجة الهواء المختنق بغازات الدفيئة والرصاص في المدن الكبرى.

إن البيئة خلقت مهية لتحقيق مصلحة الإنسان وتوفير حاجاته، وإن الله تعالى خلقها بطريقة تفرض عليها أن تتكامل وتتعاون مع بعضها البعض، ومن ثم فالحفاظ على أن يؤدي كل من مكونات البيئة دوره المنوط به يعتبر أمرا شرعيا، وذلك حتى لا يحدث خلل في الكون.

تحدث القرآن الكريم عن مشكلة تلوث البيئة قبل وقوعها بنحو أربعة عشر قرنا، وأشار إلى أنها ستكون نتيجة لما تصنعه يد الإنسان من حدوث اضطراب في توازن المواد والأحياء على الأرض ولقد خلق الله عز وجل لنا جميع موارد الحياة وجعلها أمانة في أيدينا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿الأعراف: 56﴾

* الحفاظ على البيئة واجب ديني

يفرضه الله تعالى وقد طالب الإسلام الإنسان أن يتعامل مع البيئة من منطلق أنها ملكية عامة يجب المحافظة عليها من ثروات وموارد ومكونات حتى يستمر الوجود.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 221]

* التلوث صورة من صور الإفساد والضرر والتبديل لأنعم الله.

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 20]

* تبين الآية أن الفساد سينتاب البر والبحر وأن الإنسان هو السبب الرئيسي في حدوثه وهو المتضرر الأول منه، فقد سخر الله كل ما في البيئة لخدمة الإنسان ومن ثم فإن أي ضرر يَحِقُّ بمكونات البيئة وما فيها من مخلوقات سينعكس بدوره سلباً على الإنسان نفسه.

قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 20]

* الإنسان مطالب بعدم الفساد في الأرض لأن ذلك يؤثر في رزقه من المأكول والمشرب فلا يجوز للإنسان إفساد البيئة بإخراجها عن طبيعتها

الملائمة لحياه الإنسان وقراره فيها كما لا يجوز استثمار تلك المواد أو الانتفاع بها بشكل غير رشيد يفسد أقواتها ومواردها أو يعرضها للفساد والتشويه

قال الله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32]

* من بين صور الفساد قطع الأشجار وتغيير الأنهار والتلوث بكافة صورته يهدد ضرباً من ضروب الفساد فهو يؤدي إلى إزهاق الأرواح وإهلاك الكثيرين وقتلهم دون جرم أو جنائية.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 103]

* نهى القرآن الكريم عن إحداث الضوضاء والضجة والأصوات المرتفعة في الطريق كما نهى الإسلام الحنيف عن التلغظ بالكلمات البذيئة التي يتأذى الإنسان من سماعها وذلك لأن المولى عز وجل يريد أن يحمي الأذن من كلمات السوء الرديئة.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

ما يحتاج إليه كما قال تعالى: ﴿وَبَارِكْ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: 10]، حينما خلق الله الأرض بارك فيها وقَدَّرَ فيها أقواتها، فنحن نأتي لنُفسد هذه الأرض ونُفسد تربة الأرض ونُفسد الماء ونُفسد الهواء ونُفسد كل شيء فنحن للأسف لا نشكر النعمة بل نكفر بالنعمة ولذلك قال: ﴿وَلَمَّا كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7] ولَمَّا كَفَرْتُمْ يعني كفرتم بالنعمة ولم تؤدوا لها حقها إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وهنا جاءت الآية: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41]

تنتج الدول الصناعية الكبرى في أوروبا خمسة ملايين طن من النفايات الكيميائية والنووية أما أميركا تنتج سبعة ملايين وكندا مليون طن وروسيا مليون طن وأما دول العالم الثالث مجتمعة فنتج مليون طن من النفايات ومع الأسف كان التعامل مع هذه النفايات يتم بعيد عن روح المسؤولية، فقد كانت بريطانيا تلقي بالنفايات في أنهارها وفي بحر المانش بل وفي الممر الفاصل بين اسكتلندا وإيرلندا الشمالية وفي مواقع داخل بريطانيا وتطور الأمر حتى أصبح أن الحل الأمثل كما ترى الدول الصناعية المتقدمة دفن النفايات

تعد حاسة السمع من أول وأكبر النعم التي أنعم الله بها على الناس وذكرهم بها في كثير من آياته البينات. قال الله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19].

* صور القرآن الكريم من يتحدث بصوت مرتفع صورة بغیضة حيث شبهه بالحمار صاحب أنكر الأصوات وأقبحها، إذ أن أول صوت الحمار زفير وآخره نهيق.

قال الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58].

* درج الإنسان على التعامل مع البيئة بأنانية وأخذ يعيث في مقومات الحياة فلوث الماء الذي يشربه وأفسد الهواء الذي يتنفسه وأهلك الحرث والنسل بالكيماويات والسموم وتسبب في خبث التربة الزراعية فلم تعد تنبت إلا نكدا.

الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56] يعني أن الله خلق الأرض صالحة مُهيأة لُتُنبت للإنسان ولتُعطي للإنسان

في الدول النامية.

أفاد التقرير الدولي أنه في لبنان تم اكتشاف شحنة نفايات قادمة من ألمانيا، في الصومال كان انهيار الدولة عاملاً أساسياً في تحول المياه الإقليمية والأراضي الصومالية إلى مقبرة للنفايات، تم اكتشاف مدافن نفايات في إحدى الولايات النيجرية وفي الصين يجري التحقيق عن وصول شاحنات نفايات أميركية إلى مواني عديدة.

أمثلة عن علاقة الحفاظ على البيئة بنهاية الكون

القرآن الكريم كان وسيظل دائماً مصدراً ونبعاً للإعجاز العلمي، فكلام الله العظيم وصف لنا كل ما يحدث في الكون من مظاهر يعجز العقل البشري عن تفسيرها.

إن القرآن الكريم يصف الظواهر البيئية التي تؤثر على الحياة على سطح الأرض سواء إيجابياً أو سلباً، وتصف كلمات الله في سورة الكهف النهاية القدرية التي سيوقع فيها الإنسان نفسه فتقول الآيتان ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: 8].

ويستدل من هذه الكلمات أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض تتزين وتتجمل كنوع من البلاء والابتلاء للبشر كافة حتى إذا ما أساء إليها البعض منا من عدم الحفاظ على البيئة نظيفة من كل ما يعيبها ومن كل ما يشينها فإن البلاء الأعظم والذي سيأتي بيد الإنسان هو نهاية الحياة على الأرض بأن يأمر الله أن تصبح صعيداً جرساً أي تغرق في مياه الوحل وتجذب الأرض وتبور الحياة عليها. ويقول الله تعالى في وصف البيئة وضرورة الحفاظ عليها من قبل الإنسان في سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رَّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [5].

وآيات الله تعالى أكدت على ضرورة الحفاظ على البيئة الحياتية من الدمار، وعن أرزاق الأرض والتي ينزلها الله سبحانه وتعالى من السماء، نذكر آية تضمنت حقائق علمية مذهلة والتي يقول فيها الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ

وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿[النور: 34]﴾

فقد اتضح حديثا للعلماء أهمية حدوث ظاهرة البرق في السماء والتي ينتج عنها الرعد ذلك لأن البرق وجد أنه يعمل على تكوين أكاسيد الآزوت في الهواء الجوي، ثم تذوب هذه الأكاسيد في مياه الأمطار وتسقط على الأرض محملة بالخيرات والبركات، إذ أن الآزوت يساعد على نمو فطريات ذات رائحة عطرية مقبولة ومستساغة للبشر كافة منها ما يسمى بنبات عش الغراب ومنها نوع من النباتات الصحراوية تسمى نبت الرعد والكمأة، هذا فضلا عن أن الآزوت وأكاسيد النيتروجين الأخرى تتسبب في تسميد التربة الزراعية وتقويتها وتدعيمها، وقد وصف الرسول ﷺ الكمأة فقال: **”الكمأة من المن ماؤها شفاء للعين“**.

وفي المقابل هناك العديد من الظواهر البيئية التي قد تحدث حال أن يفسد الإنسان بيعته ويعيث بها والله تعالى حذرنا منها في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومن هذه الظواهر:

1- تكون الأمطار الحمضية

يحذرنا الله من الفساد والفساد البيئي والذي ينتج عن الإنسان، مما يؤدي إلى حدوث عدم اتزان في البيئة المحيطة بالبشر وسقوط أمطار حمضية نتيجة تكون الأبخرة المالحة والتي تصعد إلى أعلى نتيجة ما تحمله من موبقات ومن مواد كيماوية تتسبب في تكون الأملاح التي تذوب في الأمطار مكونة محاليل ومواد قاتلة وسامة للحياة والتي ينتج عنها البوار وفساد التربة، وعن هذا كله يقول تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 07]. والمقصود من هذه الآية كما فسرها بعض العلماء هو تحذير للبشر من حدوث اختلاط الماء الشرب والري بالأملاح والتي تتسبب في عدم استطاعة الإنسان أن يستسيغ شربها أو يتناولها ويتسبب في بوار المزروعات وبوار التربة وفسادها.

وسبب حدوث هذه الظاهرة هو أن الأبخرة الناتجة عن المصانع والتي تخرج من مداخنها تنفث في غُباب السماء إلى أعلى أبخرة وسموما ناتجة عن تفاعلات كيماوية وأخرى بيولوجية وثالثة عضوية

وهذه كلها تؤثر في رئة الحياة ومنظومة السحاب. حيث تسقط الأمطار كي تنقى وتغسل الهواء، وفي طريق سقوطها تختلط بما هو غير مستحب من هذه الأبخرة والغازات، بما يؤثر في هذه المياه العذبة ويتسبب عن شرب هذه المياه الملوثة انتشار الأوبئة والأمراض والعلل بما يؤدي إلى نزاع بين الشعوب في مسألة من سيحتفظ على منابع ومسايق هذه المياه، بما يؤدي إلى كوارث بيئية أخرى وهكذا يدمر الإنسان نفسه بنفسه.

2- غرق الكون

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32].

ويقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: 11]

إن الإشعاع الشمسي الذي يصل إلى الأرض يصل بقدر معين، حيث يقوم الغلاف الجوي بتنظيم درجة الحرارة على كوكبنا، وكذلك الهواء والماء والغازات والنباتات والطيور والحشرات محددة نسبها.

وعن أسباب حدوث الغرق فإن العلماء قد اكتشفوا حديثاً سماء واقية - طبقة الأوزون - بقدر محكم دون تفاوت

كي يدوم فعلها ما دامت السماوات والأرض وهذه الطبقة هي بمثابة السقف المحفوظ (ذات الرجوع) أي ترجع الأشعة الكونية الضارة بالحياة والإنسان إلى الكون الخارجي بينما تسمح للأشعة المفيدة فقط بالمرور من خلالها، بمعنى أنها تشكل العمود الفقري للرئة ومنظومة الحياة على الأرض. إلا أن الإنسان نتيجة استهلاكه لهذه السماء ونتيجة تكون غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يطفو في الجو مشكلاً طبقة عازلة وخيمة نعيش تحتها الآن فإن درجات الحرارة فوق سطح الأرض ستضطرب. فهي مرة باردة ومرة حارة دون أي مراعاة للتوقيتات والأزمنة. وقد أثبت العلماء أن طبقة الغلاف الجوي المحيط بالأرض يبلغ سمكها حوالي مائة ميل (الميل = 1609 م) يتكون من مزيج من غازات وأبخرة مثل ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء والأوزون وجميعها يمتزج ببعضه بنسب ثابتة وأي خلل في هذه النسب قد يتسبب في حدوث كارثة قد تؤدي في النهاية إلى دمار الكون. وأما عن شريان الحياة ومبعث الطاقة للكون فهو الشمس حيث تصل درجة حرارة الشمس في سطحها من 5000 درجة مئوية إلى 6000 درجة وينبعث منها

وهج أشعة منها المفيد ومنها الضار، والمحصلة النهائية لهذه الأشعة وسقوطها على الأرض أنها سترفع درجة حرارة الأرض نتيجة لوهن وضعف الغلاف الواقي للأرض ونتيجة للتلوث الذي أحدثه البشر، فستصبح درجة حرارة الكون عالية جدا بتدمير طبقة الأوزون بشكل جزئي - ظاهرة الاحتباس الحراري - بما يؤدي إلى انصهار الماء في القطبين مما قد يؤدي لغرق الكون وتحويله إلى كرة من الماء وهذا هو ما حدث مع قوم نوح من قبل.

حيث تصف لنا آيات الله الكريمة هذه الكارثة الكونية وهي غرق الكون، وذلك في سورة القمر فيقول تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 12].

وهذه الآيات تحذرننا من هذه النهاية البائسة التي قد يوقع الإنسان نفسه نتيجة ما تقدم يده له من سيئات الأعمال.

وهذا هو الكفران بالنعمة، الذي يؤدي إلى زوالها، ويوجب لفاعلها العقوبة من واهب النعم سبحانه. وقد قال عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]. فكل من كفر بأنعم الله

استحق عذابه جزاء وفاقا، قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 128]. ولقد أشار القرآن إلى قرية تغير حالها من سعادة إلى شقاوة، ومن أمن إلى خوف، ومن سعة إلى ضيق بسبب هذا الكفران. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112].

ومثل هذه القرية القوم الذين أشار إليهم القرآن في سورة أخرى، إذ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28]. وجعل سبحانه رعاية الحياة واستثمار خيراتها مظهر رحمة منه وإحسان، كما أن خراب البيئة وانتشار الأوبئة مظهر غضب من الله على العصاة من عباده، كما ذكر القرآن لنا قصة سبأ، وما من الله به عليهم من نعمة، وكيف قابلوا هذه النعم بالكفران، فكان جزاؤهم هلاكها وحرمانهم منها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى
أَكْلَ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ *
ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا
الْكَافِرَ﴾ [سبأ: 17/15].

ونعى سبحانه على أولئك الأشرار
الذين يسيئون إلى الحياة ويفسدون
فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾
[البقرة: 12/11]، وأورد غضبه ونقمته
من أولئك الأشرار الذين يمحضون إلى
تشويه الحياة في الأرض، في إشارة
مباشرة إلى الأسلحة النووية والجرثومية
التي تستعملها اليوم الدول المستبدة
ضد الحياة والأحياء: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى
فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ
وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة:
205].

وفي الخاتمة: أقول جعل الإسلام
حماية البيئة والنهي عن إفسادها، واجبا

من واجبات المجتمع الفاضل، فقال
سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن
قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي
الْأَرْضِ﴾ [هود: 116].

لقد قامت الديانة الإسلامية بالفعل
منذ أربعة عشر قرنا - في هذا المجال -
على اعتبارين أساسيين: فكرة أن الموارد
الطبيعية على الأرض محدودة ينبغي
عدم تبذيرها، حيث جاء في القرآن
الكريم: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾
[القمر: 49]، والفكرة الثانية هي أن
استعمال المصادر الطبيعية واستغلالها
ينبغي أن يتم بكيفية مناسبة لا تنهك
الطبيعة وتفسدها بما يضر بمصالح أجيال
الغد، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ
بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ
وَلَكِن يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ
بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27]. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي
الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾
[المائدة: 64].

